فَلَوْ قَدَرَ السِّنَانُ عَلَى لِسَانٍ
لَقَالَ لَكَ السِّنَانُ كَمَا أَقُولُ(١)
وَلَوْ جَازَ الْخُلُودُ خَلَدْتَ فَرْداً
وَلٰكِنْ لَيْسَ لِلدُّنيَا خَلِيلُ(٢)

يدفّن بعضنا بعضاً

يرثي والدة سيف الدولة ويعزيه بها في سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة (٩٤٨م):
[الوافر]

نُعِدُّ الْمَشْرَفِيَّةَ وَالْعَوَالِي
وَتَقْتُلُنَا الْمَنُونُ بِلَا قِتَالِ(٣)
وَنَرْتَبِطُ السَّوَابِقَ مُقْرَبَاتٍ
وَمَا يُنْجِينَ مِنْ خَبَبِ اللَّيَالِي(٤)

---

(١) ورد البيت في: الخصائص، لابن جني: ١: ٢٤. السنان: الرمح. يُردف الشاعر متمًّا فكرته من أن السنان يعجز عن النطق والتصريح بما يُحسّ لو كان لديه إحساس لنطق وصرّح بما يُصرّح به الشاعر في مدحه وثنائه.

(٢) يخاطب الشاعر سيف الدولة، وفي نفسه حسرة، فالخلود على وجه الأرض ليس من طبيعة البشر، ورغم ما يمتاز به من مزايا أخلاقية وجود وعلم للأسف فإن الموت سيخيفه، وذلك من طبع الدنيا فلا يسلم من غدرها أحد.

(٣) المشرفية، السيوف. العوالي: الرماح. المنون: الموت. يعمل الإنسان كلّ ما بوسعه ليحمي نفسه من الموت فيستعين بأدوات الموت لدفعه عنه؛ سيوف ورماح يدفع بواسطتها أعداءه من بشر وحيوان، ولكن الموت يتسرّب إلى نفوس البشر بهدوء فيخترمهم واحداً تلو الآخر بلا قتال.

(٤) السوابق: الخيول. المقربات: المعدّة للاستعمال وقت الحاجة. الخبب: ضرب من عدو الخيول، وليتلافى المرء غدرات الموت يأخذ بالأسباب، إنه يأخذ حذره، فإذا به يربط الخيول إذا فاجأه عدوّ ليمتطيها بسرعة ويردّ الكيد عنه إلى نحر عدوه، وتمرّ الأيام سراعاً كأنها خيول في سباق دائم، وإذا ما صادفت بطريقها ضحيّتها أودت بها إلى الهلكة، عندئذٍ لا منجاة.

وَمَـنْ لَـمْ يَـعْـشَـقِ الـدّنْـيَـا قَـدِيـمـاً
وَلٰـكِـنْ لَا سَـبِـيـلَ إِلَـى الْـوِصَـالِ[١]
نَـصِـيـبُـكَ فِـي حَـيَـاتِـكَ مِـنْ حَـبِـيـبٍ
نَـصِـيـبُـكَ فِـي مَـنَـامِـكَ مِـنْ خَـيَـالِ[٢]
رَمَـانِـي الـدَّهْـرُ بِـالْأَرْزاءِ حَـتَّـى
فُـؤَادِي فِـي غِـشَـاءٍ مِـنْ نِـبَـالِ[٣]
فَـصِـرْتُ إِذَا أَصَـابَـتْـنِـي سِـهَـامٌ
تَـكَـسَّـرَتِ الـنِّـصَـالُ عَـلَـى الـنِّـصَـالِ[٤]
وَهَـانَ فَـمَـا أُبَـالِـي بِـالـرَّزَايَـا
لأَنِّـي مَـا أَنْـتَـفَـعْـتُ بِـأَنْ أُبَـالِـي[٥]

(١) وردت الأبيات العشرة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٤. يُتابع الشاعر وفي نفسه حسرة أن الدنيا حلوة غرّارة، فكلّ من ورد عليها عشقها حتى العبادة، ومن لم يفعل ذلك فليس من أبنائها، وديدنها منذ كانت وحتى قيام الساعة لا تُغيّر مسلكها مع بني البشر، فلا يدوم لها وصال فغدرها أهم مصادر استمرارها، فلا تدوم على ودّ وتتداول أسراب البشر سراعاً إلى أقدارهم.

(٢) ومن غريب الأمور أن كلّ ما يُحبّه المرء سريع الاختفاء، فلا دوام لما هو جميل، فسرعان ما يفتقد الحبيب حبيبه كأنه في منام، فإذا صحا منه التفت ليجد حبيبه قد اختطفه الموت من بين يديه، والحياة كأنها حلم سرعان ما تتبدّد خيوطه من أيدي البشر ويصحو الإنسان فيدركه الموت مع خيوط الفجر الأولى؛ إنها الصحوة الأخيرة.

(٣) الأرزاء، الواحد رزء: المصائب والويلات. الغشاء: الغطاء. إنه صدق التجربة، يكشف الشاعر عن معاناة حقيقية توالت أحداثها في شريط حياته، لقد كانت هدفاً تتوالى عليها المصائب والويلات، فنبالها تُصيب قلباً مزّقته طوارق الأيام والأحداث، فإذا بذلك الغشاء الرقيق قد مزّقته نبال لا تُعرف مصادرها، وكلّها تمكّنت منه وأصابت مقتله.

(٤) و (٥) النصال، الواحدة نصلة: الحديدة في رأس السهم. يُتابع الشاعر تصوير المأساة التي يقع الإنسان ضحيتها، وملء قلبه حسرة ولوعة؛ تتوالى المصائب، فإذا بالسهام توجّه إليه من كلّ جانب وصوب قاصدة قلباً مفعماً بالآلام والأحزان، ولم يعد هناك =

وَهٰـــذَا أَوَّلُ الـــنَّـــاعِـــيـــنَ طُـــرًّا
لأوَّلِ مَـــيْـــتَـــةٍ فِـــي ذَا الْـــجَـــلَالِ[١]
كَـأَنَّ الـمَـوْتَ لَـمْ يَـفْـجَـعْ بِـنَـفْـسٍ
وَلَـمْ يَـخْـطُـرْ لِـمَـخْـلُـوقٍ بِـبَـالِ[٢]
صَـلَاةُ ٱللَّـهِ خَـالِـقِـنَـا حَـنُـوطٌ
عَـلَـى ٱلْـوَجْـهِ الْـمُـكَـفَّـنِ بِـالْـجَـمَـالِ[٣]
عَـلَـى الـمَـدْفُـونِ قَـبْـلَ الـتُّـرْبِ صَـوْنـاً
وَقَـبْـلَ الـلَّـحْـدِ فـي كَـرَمِ ٱلْـخِـلَالِ[٤]
فَـإِنَّ لَـهُ بِـبَـطْـنِ الْأَرْضِ شَـخْـصـاً
جَـدِيـداً ذِكْـرُنَـاهُ وَهْـوَ بَـالِ[٥]

= من مكان لم تصبه بمقتل، ومع ذلك فإن النبال تتدافع بقوة فإذا بها لا تجد مكاناً سوى ما سبقها من سهام فتتكسر السهام على بعضها، والعادة تُميت الإحساس بالتجدّد لدى المرء فلا يهتمّ بما قد يحصل له في ما بعد، فإذا به يقع فريسة اللامبالاة، وينتهي به الأمر إلى الاستسلام.

(١) طرًّا: جميعاً. يروي الشاعر نبأ موت والدة سيف الدولة، فقد حمله ناعٍ إلى أنطاكية حيث كان يمكث. إنه موت أفضل نساء زمانها وأجلهن ولم يحدث لامرأة ماتت أفضل منها.

(٢) إنه موقف استغراب، فتصديق الخبر لا يحتمل تكذيباً، ومع ذلك فالناس في حالة اندهاش كأنهم لا يعتقدون بأن كبار أقوامهم لا يموتون ويروحون يرجمون بالغيب ويُقلّبون الأمور على وجوهها وكأن الموت لم يخترم أحداً قبلها.

(٣) الحنوط: خليط من الطيوب يُحلى ويُضمّخ بها الميت بعد غسله. يتمنّى الشاعر للفقيدة المغفرة والرحمة ويدعو لها بالقبول الحسن لدى بارئها، هاهي قد هيّئت بعد غسلها وقد ضمخت وحلّيت بالطيوب، فإذا بوجه جميل مشرق بالضياء، وفي ذلك استبشار بأن الفقيدة من أهل الجنان.

(٤) اللحد: الشقّ في جانب القبر. الخلال: الصفات. يُنوّه الشاعر بمزايا الفقيدة، فقد كانت من المصونات العفيفات تمتاز بكرم الأخلاق وجميل الصفات، فكيف يُمكن أن تُدفن كلّ تلك الفضائل في التراب؟ وهل يُعقل أن يكون ذلك؟

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٤. إنه منطق الأحداث فإذا دفن =

أَطَـابَ الـنَّـفْـسَ أَنَّـكِ مُـتِّ مَـوْتـاً
تَـمَـنَّـتْـهُ الْـبَـوَاقِـي وَالْـخَـوَالِـي (١)
وَزُلْـتِ وَلَـمْ تَـرَيْ يَـوْمـاً كَـرِيـهـاً
يُـسَـرُّ الـرُّوحُ فِـيـهِ بِـالـزَّوَالِ (٢)
رِوَاقُ الْـعِـزِّ حَـوْلَـكِ مُـسْـبَـطِـرٌّ
وَمُـلْـكُ عَـلِـيٍّ ٱبْـنِـكِ فِـي كَـمَـالِ (٣)
سَـقَـى مَـثْـوَاكِ غَـادٍ فِـي الْـغَـوَادِي
نَـظِـيـرُ نَـوَالِ كَـفِّـكِ فِـي الـنَّـوَالِ (٤)
لِـسَـاحِـيـهِ عَـلَـى الأَجْـدَاثِ حَـفْـشٌ
كَـأَيْـدِي ٱلْـخَـيْـلِ أَبْـصَـرَتِ الـمَـخَـالِـي (٥)

= المرء في مثواه الأخير، فقد دخل في عالم الفناء، ولا يبقى منه سوى ذكراه، فإن كان صالحاً أو ترك شيئاً ما كولد أو علم أو عمل صالح يُذكر بذكر ما ترك، وبذلك تتجدّد ذكراه في قلوب بني جلدته.

ـ ثمَّة بيت ورد بعد هذا البيت لم يرد في الديوان، وهو التالي:

وَمَـا أَحَـدٌ يُـخَـلَّـدُ فِـي الـبَـرَايَـا بَـلِ الـدُّنـيـا تَـؤولُ إِلـى زوالِ

(١) و (٢) الخوالي: الماضية. يُخاطب الشاعر الفقيدة، فما يدخل العزاء إلى القلوب أنها ماتت مصونة عفيفة، فلم يحدث لمن مضى من النسوة ومن بقيت منهن توذّ لو ماتت ميتتها في عزّ وقد حازت خيري الدنيا والآخرة؛ فقد عاشت حياة هانئة لم يُعكّر صفوها كدر بحيث تتمنّى الموت لتتخلص من المآسي التي تتعرّض لها، فلو كان ذلك لكان الموت راحة لها.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٤. المسبطر: الممتد. يروى «مستظل» و«مستطيل» بدلاً من «مسبطر». يردف الشاعر أن الفقيدة قد شهدت ما كان عليه ملك ابنها من عزّ وازدهار نعمت به، ثم ماتت وهو ينعم بسلطان مبين زاهر ممتد. إنها ميتة يتمنّاها كلّ إنسان.

(٤) المثوى: المنزل، وهو يقصد بذلك قبرها. الغادي: السحاب المفعم بالمطر في الغداة. النوال: العطاء. يدعو الشاعر للفقيدة بالرحمة والسقيا بماء الغادي من السحب الجمّة لقاء ما كانت تنثره من فيض كرمها على المحتاجين.

(٥) الساحية: التي تقشر الأرض لشدّة انصبابها. الأجداث: القبور. الحفش: شدّة =

أُسَـائِـلُ عَـنْـكِ بَـعْـدَكِ كـلَّ مَـجْـدٍ،
وَمَـا عَـهْـدِي بِـمَـجْـدٍ عَـنْـكِ خَـالِ[١]
يَـمُـرُّ بِـقَـبْـرِكِ الْـعَـافِـي فَـيَـبْـكِـي،
وَيَـشْـغَـلُـهُ الْـبُـكَـاءُ عَـنِ الـسُّـؤَالِ[٢]
وَمَـا أَهْـدَاكِ لِـلْـجَـدْوَى عَـلَـيْـهِ
لَـوَ أَنَّـكِ تَـقْـدِرِيـنَ عَـلَـى فَـعَـالِ[٣]
بِـعَـيْـشِـكِ هَـلْ سَـلَـوْتِ فَـإِنَّ قَـلْـبِـي،
وَإِنْ جَـانَـبْـتُ أَرْضَـكِ غَـيْـرُ سَـالِ[٤]

= الوقع. المخالي، الواحدة مخلاة: مخيط من الخيش كالكيس يُوضع فيه تبن تأكله البهائم ويُعلّق في رقبة البهيمة. يصوّر مدى عنف انهمار المياه وهطولها بحيث تقشر القبور كأيدي الخيول الجائعة إذا شاهدت المخالي المليئة شعيراً دبّ فيها النشاط وراحت تحفر الأرض بقوائمها الأمامية لفرحها بما حصلت عليه.

(١) خالٍ: فارغ. يُخاطب الشاعر الفقيدة مشيداً ومتحدثاً عن أمجادها التي حقّقتها في حياتها أين هي الآن؟ ومن استطاع أن يُعبّئ الفراغ الذي تركته؟ إنه يرى أن تلك الأمجاد ضائعة تبحث عن صاحبتها بين النّسوة، ولكن للأسف لم يجد من يملأ الفراغ الذي تركته.

(٢) العافي: الفقير المحتاج. العافون كثر، والحاجة مذلّة، وهم دائمو البحث عمّن يسدّ خلتهم، لذا فهم يمرّون بقبر الفقيدة، فإذا بعبراتهم تخنقهم فلا يستطيعون الكلام ولا يسألونها كعهدهم بها يوم كانت حيّة ترفدهم بعطاياها.

(٣) الجدوى: الإنعام. الفعال: فعل الخير. يُنوّه الشاعر بكرم المتوفاة، إنها تُسارع إلى فعل الخيرات فتوفّر على العافين ذلّ السؤال فتُرفدهم بما يحتاجون من مال إذا كان باستطاعتها، ولكن الموت حال دون ذلك.

(٤) يُقسم الشاعر بحياة المتوفاة سائلاً إيّاها هل سلت عن حبّها العطاء، ذلك أن قلبه، رغم بعدها، غير سالٍ عن جودها، ولذا فالحزن يملأ قلبه لفراقها وهو يذكرها رغم الفاصل المكاني بينهما ويندبها وإن جانب أرضها.

نَـزَلْـتِ عَـلَـى الْـكَـرَاهَـةِ فـي مَـكَـانٍ
بَـعُـدْتِ عَـنِ الـنُّـعَـامَـى وَالـشَّـمَـالِ[١]
تُـحَـجَّـبُ عَـنْـكِ رَائِـحَـةُ الْـخُـزَامَـى،
وَتُـمْـنَـعُ مِـنْـكِ أَنْـدَاءُ الـطِّـلَالِ[٢]
بِـدَارٍ كُـلُّ سَـاكِـنِـهَـا غَـرِيـبٌ
طَـوِيـلُ الـهَـجْـرِ مُـنْـبَـتُّ الْـحِـبَـالِ[٣]
حَـصَـانٌ مِـثْـلُ مَـاءِ الـمُـزْنِ فـيـهِ
كَـتُـومُ الـسِّـرِّ صَـادِقَـةُ الـمَـقَـالِ[٤]
يُـعَـلِّـلُـهَـا نِـطَـاسِـيُّ الـشَّـكَـايَـا،
وَوَاحِـدُهَـا نِـطَـاسِـيُّ الـمَـعَـالِـي[٥]

(١) و (٢) النعامى: ريح الجنوب. الشمال: الريح تهب من ناحية القطب. يُخاطب الشاعر المتوفاة، فقد حلّت رغماً عنها في مكان قد انقطعت عنه رياح الجنوب اللطيفة ورياح الشمال العاتية، وهما من عناصر الحياة الضرورية، فبهما ينتشر ريح الخزامى العطر، وبهما تحمل الأمطار حيث الرياض النضرة والطبيعة الخلّابة الجميلة، كلّ ذلك ما عاد له وجود فالمكان غير المكان والزمان غير الزمان.

(٣) يقصد بالدار: القبر. منبتّ: منقطع. يقصد بالحبال: العلاقة والشمل. القبور ديار غربة يتجاور فيها أناس لا يربطهم رابطة دم أو رابطة وطن أو رابطة دين؛ إنهم غرباء قد ينطقون بألف لغة ولغة جمعتهم الأقدار والموت طواهم في التراب؛ فعلاقاتهم مع الأحياء قد انبترت وهجرهم طويل يطول ببقاء الحياة على وجه الأرض.

(٤) الحصان: العفيفة من النسوة. المزن: السحاب المفعم بالمياه. يمدح الشاعر المتوفاة، فقد احتضن المكان امرأة عفيفة صالحة ليست بفاحشة قولاً ومسلكاً، لقد كانت طاهرة طهارة ماء السماء بنقائه وطهارته فلم تدنّسه مفاسد الأرض وطينها الموبوء بالكدر، ومن طبعها كتمان أسرار الآخرين، وبذا يأمنونها فضلاً عن أنها تصدق القول.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٤. يُعلّلها: يُعالجها. النطاسي: الطبيب الماهر. الشكايا، الواحدة شكوى: الأمراض. يقصد بواحدها ولدها سيف الدولة. يذكر الشاعر الواقع الذي كانت عليه المتوفاة، فثمَّة طبيب ماهر في صنعته =

إِذَا وَصَفُوا لَهُ دَاءً بِثَغْرٍ
سَقَاهُ أَسِنَّةَ الأَسَلِ الطِّوَالِ[١]
وَلَيْسَتْ كَالإِنَاثِ وَلَا اللَّوَاتِي
تُعَدُّ لَهَا القُبُورُ مِنَ الْحِجَالِ[٢]
وَلَا مَنْ فِي جَنَازَتِهَا تِجَارٌ
يَكُونُ وَدَاعُهَا نَفْضَ النِّعَالِ[٣]
مَشَى الْأُمَرَاءُ حَوْلَيْهَا حُفَاةً
كَأَنَّ الْمَرْوَ مِنْ زِفٍّ الرِّئَالِ[٤]

= يعتني بها ويقوم على علاجها، وفي المقابل هناك طبيب من نوع آخر، إنه طبيب المعالي الخبير بأدواء المعالي فيعمل على إزالتها بحنكة ودراية حتى تبقى معاليه سليمة من كل نقص وعيب.

(١) الداء: المرض. الثغر: موطن المخافة من الحدود الفاصلة بين بلاد المسلمين وأعدائهم. الأسنة: الواحد سنان: الرماح. الأسل: الرماح. يمدح الشاعر سيف الدولة بحسن السياسية، ففي حال نزل بثغر من ثغور المسلمين الروم يعملون فيه خراباً سارع الأمير إلى حسم الداء بالدواء المناسب، من سلاح وجند وخيل وسواها، فكان للرماح دور في الشفاء السريع.

(٢) و (٣) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٤. الحجال، الواحدة حجلة: مخدع المرأة تحيطه الستائر. الجنازة: النعش يوضع فيه الميت: التابوت. التجار، الواحد تاجر. يضع الشاعر المتوفاة في مكانها اللّائق بها، إنها ليست كسائر النساء، تحجبهن الستور وينعزلن عن الحياة، وتكون القبور آخر ما يسترهن، ولم تكن من العامة والسوقة، فيتّبع جنازتها وحالما تدفن إحداهن، يرجع المشاركون في جنازتها وينفضون أحذيتهم ممَّا علق بنعالهم من غبار. لا بل إنها ملكة ووالدة ملك، فلا بدّ من أن تكون جنازتها تليق بمقام الملوك.

(٤) المرو: أحجار بيضاء دقيقة برّاقة. زفّ: صغار الريش. الرئال، الواحد رأل: ولد النعام. يصف الشاعر الموكب الحزين، والكلّ من الأمراء حافٍ يمشون على حجارة فلا يُحسون بألم لشدّة حزنهم كأنهم يطأون ريش النعام، وبالطبع يتقدّمهم ابنها الأمير، إنها جنازة ملوك.

وَأَبْـــرَزَتِ الْـــخُـــدُورُ مُـــخَـــبَّـــآتٍ
يَـضَـعْـنَ الـنِّـقْـسَ أَمْـكِـنَـةَ الْـغَـوَالِـي[١]
أَتَـتْـهُـنَّ الـمُـصِـيـبَـةُ غَـافِـلَاتٍ
فَـدَمْـعُ الْـحُـزْنِ فـي دَمْـعِ الـدَّلَالِ[٢]
وَلَـوْ كـانَ الـنِّـسَـاءُ كَـمَـنْ فَـقَـدْنَـا
لَـفُـضِّـلَـتِ الـنِّـسَـاءُ عَـلَـى الـرِّجَـالِ[٣]
وَمَـا الـتَّـأْنِـيـثُ لاسْـمِ الـشَّـمْـسِ عَـيْـبٌ
وَلَا الـتَّـذْكِـيـرُ فَـخْـرٌ لِـلْـهِـلَالِ[٤]
وَأَفْـجَـعُ مَـنْ فَـقَـدْنَـا مَـنْ وَجَـدْنَـا
قُـبَـيْـلَ الْـفَـقْـدِ مَـفْـقُـودَ الـمِـثَـالِ[٥]

(١) الخدور، الواحد خدر: المخادع. النقس: المداد. الغوالي: الطيوب. ولإتمام المشهد الحزين، فقد تخلّت النسوة من آل بيت المتوفاة عن خدورهن وتسترهن في مخادعهن، كاشفات عن رؤوسهن، وقد استبدلن المداد الأسود على وجوههن بدلاً من الطيوب التي تعوّدن على التطيّب بها. لشدّة حزنهن لموت عزيزة عليهن.

(٢) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٥. يروى «المصائب» بدلاً من «المصيبة» لقد كان موت الفقيدة مفاجئاً، لقد كان النسوة يبكين دلالاً على سبيل التسلية والضحك، فكان الموت. فاختلط بكاء الحزن ببكاء الدلال.

(٣) ينوّه الشاعر بمكانة المتوفاة الرفيعة، فلو أن كثيرات من النسوة على مكانتها لفضلت النسوة على الرجال، لأنهم أقدر على اجتراح المعجزات والتوق في مجال الفضائل رغم كثرتها.

(٤) ورد البيت في: أسرار البلاغة للجرجاني: ١٥٩. يُردف الشاعر معقباً على ما سبق فالشمس اسم وإن كان من أسماء الإناث فليس عيباً فلا يُنقص من فضلها على حياة سائر الكائنات الحيّة، كالبشر والحيوان والنبات، وكذلك فالقمر من أسماء التذكير، فليس مدعاة لفخر وإن كان مذكراً، فإسهامه في حياة الكون زهيد بل إنه يستمد نوره من الشمس، وهي صاحبة فضل عليه.

(٥) يمدح الشاعر سيف الدولة بأنه لا مثيل له في بقائه على الحياة، ولقد آلمته المصيبة فقد فَقَدَ أمًّا لا مثيل لها في عالم الأمهات، وهذا ما يزيد في حزنه ويزيده إحساساً بالفاجعة التي ألمّت به.

يُـدَفِّـنُ بَـعْـضُـنَـا بَـعْـضـاً وَتَـمْـشِـي
أَوَاخِـرُنَـا عَـلَـى هَـامِ الأَوَالِـي[١]
وَكَـمْ عَـيْـنٍ مُـقَـبَّـلَـةِ الـنَّـوَاحِـي
كَـحِـيـلٌ بِـالْـجَـنَـادِلِ وَالـرِّمَـالِ[٢]
وَمُـغْـضٍ كَـانَ لا يُـغْـضِـي لِـخَـطْـبٍ،
وَبَـالٍ كَـانَ يُـفْـكِـرُ فـي الـهُـزَالِ[٣]
أَسَـيْـفَ الـدَّوْلَـةِ ٱسْـتَـنْـجِـدْ بِـصَـبْـرٍ
وَكَـيْـفَ بِـمِـثْـلِ صَـبْـرِكَ لِـلْـجِـبَـالِ[٤]
فَـأَنْـتَ تُـعَـلِّـمُ الـنَّـاسَ الـتَّـعَـزِّي
وَخَـوْضَ الـمَـوْتِ فـي الْـحـرْبِ الـسِّـجَـالِ[٥]

(١) و (٢) الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. الأوالي: الماضين. إنها الحياة عارية للعيان، ولا يمكن إلّا أن تكون كذلك، فالأموات يمرّون ويعبر المرء الحياة، منذ كان الإنسان على وجه الأرض، ويُدفن وتُهال عليه أتربة بأيدي الأحياء، ويرجع هؤلاء من إيداعه موطنه الأخير وكأنهم لم يفعلوا شيئاً، ولذا لم يتّعظوا ممَّا حصل. وثمَّة عيون تفتحت على الحياة فبهرتها نعمتها وجمالها وتكحّلت بمرأى الوجود، فإذا بها تتكحّل بالتراب وحال دونها ودون أشعة شمس الحياة بلاطات لحد صلبة.

(٣) مغضٍ: مقارب بين جفنيه. الخطب: الأمر الجلل. الهزال: النحول. يُردف الشاعر أن كثيرين قد عاشوا لا يهتمون بالموت فلا ترف لهم عين، وهم آنئذٍ لا يكترثون بالمصائب تتوالى لقوّتهم على تخطّي المحن، هم الآن تحت التراب، وكان أحدهم إذا أحسّ أقل إحساس بمرض سارع إلى معالجته مخافة الموت، معتقداً أي هزال يعتريه يودي به إلى القبر.

(٤) يُخاطب الشاعر سيف الدولة طالباً منه الثبات على الصبر أمام تلك الفاجعة، ومعلوم عنه أنه جلد صبور حتى إن الجبال تستلهم منه الصبر وتتمنّى أن تكون على شاكلة صبره.

(٥) الحرب السجال: هي الحرب التي يتبادل فريقاها النصر والهزيمة. يُردف الشاعر مقولياً من عزيمة الأمير كي يتخطى المحنة، إنه مثال الصبور، وقد خاض حروباً عديدة كان في بعضها النصر حليفه وفي بعضها يتخلّى عنه وفي الحالين كان يتحلّى بصبر عجيب، فالأحرى به الآن أن يعتصم بصبره وقد كان يحضّ جنده والآخرين على الصبر، فهو أولى بصبره من غيره.

وَحَـالاتُ الـزَّمَـانِ عَـلَـيْـكَ شَـتَّـى
وَحَـالُـكَ وَاحِـدٌ فِـي كـلِّ حَـالِ[١]
فَـلَا غِـيـضَـتْ بِـحَـارُكَ يـا جَـمُـومـاً
عَـلَـى عَـلَـلِ الْـغَـرَائـبِ وَالـدِّخَـالِ[٢]
رَأَيْـتُـكَ فـي الَّـذِيـنَ أَرَى مُـلـوكـاً
كـأَنَّـكَ مُـسْـتَـقِـيـمٌ فـي مُـحَـالِ[٣]
فَـإِنْ تَـفُـقِ الأَنَـامَ وَأَنْـتَ مِـنْـهُـمْ
فَـإِنَّ الـمِـسْـكَ بَـعْـضُ دَمِ الْـغَـزَالِ[٤]

---

(١) شتّى، الواحد شتيت: متفرّقة. يردف الشاعر معقباً بأن الأمير ذاق من الأيام ما هو حلو ومرّ وكان مثال الصلابة في الملمات العظام، يمتاز بالصبر والتعقّل وحسن التصرّف فتمضي الأزمات، ويبقى على حاله وإن تحوّل الزمان عنه مرّة فقد كان معه مرات.

(٢) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢: ٣٨٤. غيضت البحار: نضبت وجفّت. الجموم: الماء الذي يزداد مع الوقت. العلل: الشرب مرة بعد مرة. الغرائب من الإبل: الغريبة التي تتردّد على مياه ليست لأصحابها. الدخال: دخول بعير بين بعيرين ليزداد ريًّا. يدعو الشاعر لممدوحه لاستمرار عزّه وغناه، ولتزداد بحاره غنًى وإن كثر العفاة والسائلون وهم يعبّون من بحار كرمه، متمنياً عليه أن يلتزم بصبره.

(٣) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ١٥٩، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٩. المحال: المعوجّ. يخاطب الشاعر ممدوحه أنه يرى فيه استقامة وصلاحاً بين من يعتقد الشاعر أنهم ملوك وقد حادوا عن جادة الصواب، إنه أصلحهم على الإطلاق وأفضلهم.

(٤) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٢٣٥، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٦٩. الأنام: البشر. يُخاطب الشاعر ممدوحه، إنه أفضل البشر طرًّا، وهذا لا يُضيره أن يكون من البشر تماماً كالمسك فهو أفضل ما في دم الغزال وما يبقى منه لا يساوي شيئاً بالنسبة للمسك.